الحركة الوهابية

ردّ على مقال
للدكتور محمد البهي
في نقد الوهابية

بقلم
الدكتور محمد خليل هراس

دار الكاتب العربي

مقدمة

لأستاذنا الدكتور محمد البهي كتيب نشرته « دار الفكر » ببيروت ، عالج فيه الفكر الإسلامي في تطوره وتتبعه في أدواره المختلفة بين الصعود والهبوط ، وبين الحركة والجمود .

وقد عقد في هذا الكتيب فصلاً عن الحركة الوهابية ، باعتبارها امتداداً للحركة الدينية الاصلاحية التي قام بها في القرن الثامن الهجري شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

وقد ملأ الدكتور الكبير مقاله عن الوهابية بمزاعم لا تتفق مع الحق ، ولا سند لها من الواقع ، ونقدها نقداً جانب فيه الانصاف ، ولم يراع فيه موازين البحث العلمي .

ومعلوم أن النقد النزيه لأي أمر من الأمور ، هو الذي لا يغمط الحسنات بقدر ما لا يغفل السيئات ، ولكن دكتورنا لم يذكر لهذه الحركة المباركة ولا حسنة واحدة ، بل كل ما ورد في مقاله عيوب ومثالب ، وإلقاء التهم جزافاً بلا حساب ، مما يوحي بأنه كان واقعاً تحت تأثير عوامل معينة .

نعم ، إن الذي يقرأ النقد الموجه من الدكتور البهي للحركة ، ثم يوازن بينه وبين المبادىء الذاتية لتلك الحركة ، وما قامت به في الماضي ولا تزال تقوم به من إصلاحات ضخمة في مجالي العقيدة والعمل، يعجب للمصادر التي اعتمد عليها الدكتور في نقده ، بحيث لا يداخله أدنى شك في أنه استقى ذلك مما كتبه أعداء الحركة عنها .

وعهدنا بالدكتور الكبير أنه يسلك دائماً في كل ما يكتبه سبيل التحقيق العلمي ، ويلتزم جانب الدقة والتمحيص ، وقد تعلمنا منه ذلك أثناء تتلمذنا له في مادة الفلسفة الإسلامية بالدراسات العليا بكلية أصول الدين إحدى كليات الجامعة الأزهرية . وكان لي أنا شخصياً شرف إشرافه على رسالتي التي حصلت بها على العالمية من درجة أستاذ وكانت بعنوان : « ابن تيمية السلفي » .

ولكنه في هذا الفصل من كتابه خالف معهوده ، فألقى القول على عواهنه ، من غير تثبت ولا تحقيق .

ونستأذن أستاذنا الكبير أن نناقش ما كتبه عن تلك الحركة قضية قضية ، فإنه مهما كان عزيزاً علينا وحبيباً إلى قلوبنا ، فإن الحق آثر عندنا حتى من نفوسنا ، وقديماً ناقش أرسطو فلسفة أستاذه أفلاطون ، وقال في ذلك كلمته المشهورة :

« أفلاطون صديق ، والحق صديق ، ولكن الحق آثر لدينا من أفلاطون » .

ولنبدأ بالتعقيب على مقال الدكتور بعد أن نقدم بين يدي نقدنا له ، تلخيصاً لذلك المقال نفسه .

أسس الحركة الوهّابيّة

نشأة الحركة الوهابية :

لقد خصص سعادته الفصل الرابع والأخير من كتابه « الفكر الاسلامي في تطوره » للكلام عن الحركة الوهابية ، فأرخ لها من جانبين :

الأول : من جانب الأحداث السياسية وصلتها بالحكومة القائمة على رعايتها .

الثاني : من جهة أنها حركة دينية ترسمت حركة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

ثم قال : « والذي يهمنا من حركة محمد بن عبد الوهاب هو الجانب الثاني بالذات » .

ثم قدم ترجمة مختصرة لمؤسس الدعوة ـ رحمه الله ـ فذكر رحلاته في طلب العلم إلى معظم العواصم الإسلامية مثل مكة والمدينة في الحجاز ، والأحساء في منطقة الخليج العربي ، والبصرة وبغداد فيما بين النهرين ، ودمشق في سوريا ، وأصفهان وقم في إيران ، وذكر أنه أقام في هذه الأخيرة مدة تزيد على اثني عشر عاماً قضاها في الدرس والتعلم ، وأنه بهذه الرحلة الطويلة ضم معرفة تجريبية واقعية عن الاسلام والمذاهب الإسلامية ، وأن شأنه في ذلك شأن أستاذه ابن تيمية من قبل وشأن أصحاب الحركات الإسلامية التي جاءت بعده ، وأنه لما عاد إلى بلدته « العيينة » صمم على الجهر بدعوته فجهر بها ، ولكنه صادف معارضة شديدة ، فرحل من العيينة إلى « الدرعية » في شمال الرياض حيث يقيم الأمير محمد بن سعود الذي رحب به وأظله بحمايته ، وهناك تعاهد الشيخ والأمير على أن يبقى الشيخ في مقر الأسرة السعودية ، وفي مقابل ذلك يناصر الأمير دعوة الشيخ بقوة السلطان .

وظل الأمر على ذلك إلى أن توفي الشيخ رحمه الله في سنة ١٧٩٢ م .

وبعد وفاة الشيخ والأمير تعاهد أبناء الأسرتين بالاستمرار في تنفيذ اتفاق والديهما ، ولم يزل الوضع في صلة الدعوة الوهابية بالحكومة السعودية على ما كان عليه حتى الوقت الحاضر .

ثم يقول سعادته : « وبهذا التعاهد اجتمع لهذه الدعوة سلطان الحاكم وقوة الايمان بها ، وقلما اجتمع الأمران في حركة دينية ، بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين سوى هذه الحركة ، ومن هنا كان يؤمل كثيراً في نشاط هذه الحركة » .

ثم أرخ سعادته بعد ذلك الجانب السياسي لهذه الحركة ، فبين كيف أفادت من اتساع حكم السعوديين وازدياد نفوذهم في شبه الجزيرة العربية ، حتى دخلت مكة والمدينة مع الفتح السعودي للحجاز ، وبذلك تهيأت لها الفرصة في موسم الحج لشرح أسسها ونشر تعاليمها .

فانتشرت الدعوة عن طريق هذه اللقاءات التي كانت تتم بمكة والمدينة في موسم الحج ، حتى وصلت إلى الهند وأندونيسيا شرقاً ، وإلى السودان والشمال الأفريقي غرباً .

ثم تحدث عن اتساع نفوذ السعوديين خارج شبه الجزيرة

العربية حتى وصل عمان وزبيد في جنوبي اليمن ، ووصل إلى قلب العراق وضواحي دمشق ، مما أزعج الخليفة التركي في الاستانـة ، وأثار مخاوفه ، فكلف واليه بمصر « محمد علي باشا » بحرب السعوديين وردهم إلى مقر ولايتهم الأول .

ثم يقول سعادته : « ولكن ما لبث النفوذ السعودي أن عاد بالتدريج إلى قوته ، وإلى سيطرته نهائياً على نجد والحجاز على نحو الوضع القائم منذ سنة ١٩٢٥ م » .

الحركة الوهابية تدعو إلى توكيد التوحيد :

ثم يبدأ الحديث عن الوهابية ، كحركة دينية إصلاحيـة ، فيرجع أسس الدعوة الوهابية إلى ثلاثة أنواع :

الأول ـ فيما يتصل بالأصول وهي العقيدة .

وهنا يقول : « فإنها تدعو إلى توكيد التوحيد ونفي الشرك ، بحيث تقصر العبادة على الله وحده » .

وهذا كلام جميل وتصوير صادق مجمل ، لهـدف الدعوة في هذه الناحية من التوحيد ، أعني توحيـــد الإلهية الذي يقوم على

إخلاص الدين لله ، والتوجه اليه وحده بجميع أنواع العبادات ، ولهذا كان هدف الدعوة الأول هو القضاء على كل ما ينافي هذا التوحيد من مظاهر الشرك والوثنية التي كانت قد استشرت في العالم الإسلامي كله ، واتخذت صوراً متعددة ، كعبادة الموتى ، والاستعانة بأصحاب الأضرحة ، وتقديم النذور والقرابين لهم ، والتبرك بالأحجار والأشجار والمغارات ، والاعتقاد في السحر والتنجيم والعرافة وأنواع الشعوذة .

فجدّت الدعوة في القضاء على ذلك كله ، بإزالة ما كان الناس يفتتنون به من القبور والحجارة ، ثم ببيان حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وبيان الأمور المنافية له .

وكان كتاب « التوحيد » الذي ألفه مؤسس الحركة رحمه الله ، يعتبر في ذلك الوقت دستوراً لدعاة الحركة يعلمونه الناس ويشرحون لهم فصوله ومسائله .

ثم يعقب الدكتور على ما تقدم بقوله : « ويفهم من معنى القداسة والعبادة كل معنى يقوم على الاحترام ولو كان بحكم الإلف والعادة » .

يعني بذلك سعادته أن الوهابيين قد اشتطوا في تحديد مفهوم

العبادة ، فأدخلوا فيه ما كان من الاحترام والتقديس قائمـــاً على الإلف والعادة .

ولم نسمع قبل اليوم أن الإلف والعادة يجعلان عبادة غير الله مشروعة وسائغة ، فإذا كان الناس قد ألفوا أن يقيموا القباب على أضرحة الموتى ، وأن يستغيثوا بهم في الملمات ويدعوهم لقضاء الحاجات ، ويتملقوهم بالنذور والقربانات ، وأن يقفوا أمـــام مقاصيرهم خاشعين ، ويناودهم متوسلين متذللين ، فذلك شيء لا ضير فيه ولا ينافي توحيد العبادة ـــ في نظر دكتورنا ـــ لأنه من قبيل الإلف والعادة .

ولو صح منطق الدكتور في الإغضاء عن كل ما يُفعل بطريق الإلف والعادة ، لما كان هناك داع لإرسال الرسل ، فإن أممهم إنما كانت تفعل ما تفعل من ألوان الشرك والمعاصي على سبيل الإلف والعادة ، وكذلك المشركون من العرب الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقاتلتهم ، ونزل القرآن بذمهم ، وتوعدهم بالنار المؤبدة ، ما كانوا يزاولون أعمالهم الشركية ، من تقديم النذور ونحر الذبائح ومن الطواف والدعاء ، إلا على جهة الإلف والعادة .

ولهذا حكى القرآن عنهم أنهم كانوا إذا نهوا عن ذلك قالوا :

« إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

الحركة الوهابية تدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة :

ثم يقول سعادته : « فبناء القبور على وجه الأرض ، وزيارتها في انتظام ، والوقوف عندها في خشوع ، ليست منافذ ينفذ منها الإنسان إلى الشرك وعدم التوحيد بل هي شرك على الحقيقة » .

وهذا كلام عار عن الصحة ، بل هو تجن على الحقيقة ، ولا ينم إلا عن رغبة في التشويه والتشهير ، فإن الذي تعتبره الدعوة شركا على الحقيقة ليس هو بناء القبور على وجه الأرض ولا زيارتها في انتظام الخ .. بل هو ما يرتكب أثناء الزيارة لهذه القباب ، من دعاء صاحب القبر والاستعانة به ، وطلب الحاجات واستمداد البركات منه ، ثم وضع النذور في صندوقه ، وسوق الذبائح إلى ساحته والإهلال عليها باسمه ، إلى غير ذلك مما لا يشك مسلم في أنه شرك صريح .

وأما ما ذكره الدكتور من بناء القبور وإشرافها وإقامة القباب عليها واعتياد زيارتها الخ .. فهو وإن لم يكن شركاً لكنه ذريعة إلى الشرك ، لأنه يفضي إلى تعظيم هذه القبور وعبادتها ، ولهذا

حرّمه الإسلام وأوجب تسوية القبور بالأرض ، ونهى عن اشرافها وتجصيصها ، واتخاذ المساجد والسرج عليها ، كما في الحديث الذي رواه أصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

وقد روى مسلم عن أبي الهياج الأسدي أن علياً رضي الله عنه قال له : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع قبراً مُشرَفاً إلا سوّيته ولا صورة إلا طمستها » .

ولو لم تقم الدعوة الوهابية بهدم القبور المشرفة وتسويتها تطبيقاً لهذه المبادىء الإسلامية ، بعد أن مكّن الله لها في أرض الحجاز ، لكانت — لا قدر الله — خائنة لهذه المبادىء ، ولكانت دعوة نظر وكلام فقط .

ومن العجيب أنه في الوقت الذي يشجب فيه الدكتور ومن وراءه من القبوريين ، الحركة الوهابية ، وينعتونها بالتشدد ، يلومها أنصار التوحيد الحق على الإسراف في التسامح ، حين يرون بعض البدع الشركية لا تزال ترتكب عند الحرمين الشريفين ، من جانب هؤلاء الذين عايشوا هذه البدع قروناً طويلة قبل أن يظلل الحكم

السعودي على الحجاز براية التوحيد المباركة ، ولكن الدعوة دائماً تؤثر جانب اللين ، وتدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى تقطع الطريق على خصومها الذين يرمونها بالتزمت والجفاء .

الحيطة الواجبة لأعظم أصل في الإسلام :

ثم يقول سعادته : « وهنا في هذه المبالغة يكمن عامل الفرقة بينهم وبين بقية المسلمين ، فبينما هم يرون أنفسهم موحدين وأهل توحيد ، ويرون غيرهم ممن لا يسلك سبيلهم في المبالغة مشركين ، إذا بغيرهم ينظرون إليهم على أنهم أهل تشدد وتزمت ، وأصحاب ضيق في الأفق والفهم لهذا الأصل الإسلامي وهو أصل التوحيد » .

والكلام هنا مع الدكتور في تحديد المبالغة التي يكمن فيها عامل الفرقة بين الوهابيين وغيرهم من المسلمين ، فهل إذا قامت الوهابية بتنفيذ ما أمر به الشرع من هدم القبور وتسويتها صيانة لجانب التوحيد ، ودفاعاً عن حماه المقدس ، يعتبر ذلك مبالغة منها تستحق عليها أن ترمى بالتشدد والتزمت ، وتعد خارجة على بقية المسلمين ؟

ألا يذكر الدكتور أنه درس فيما درس من أصول الفقه قاعدة

تسمى : « سد الذرائع » تقول إن كل ما يفضي إلى محرم هو محرم مثله .

ومن أجل هذه القاعدة نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ المساجد على القبور ، لما أن ذلك قد يكون ذريعة إلى تعظيمها وعبادتها .

ونهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لما في ذلك من التشبه بعبادها الذين يتحرون السجود لها في هذه الأوقات .

ونهى كذلك عن شد الرحال إلى مكان ما من الأمكنة بقصد التعبد والصلاة فيه ، إلا إلى أحد المساجد الثلاثة الكبار : « المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى » .

ونهى أن يقوم الناس بعضهم لبعض على جهة التعظيم .

ونهى أصحابه عن الغلوّ فيه والمبالغة في مدحه فقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

ونهى عن اتخاذ قبره عيداً وقال : « صلوا عليّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » .

وقال للرجل الذي قال له : « ما شاء الله وشئت » : « أجعلتني

لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » .

ومن أجل سد الذرائع أيضاً ، أمر عمر رضي الله عنه بقطع شجرة الرضوان التي بايع الصحابة تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية .

وقال مرة وهو يستلم الحجر الأسود : « إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » .

وعزل خالد بن الوليد من قيادة جيش المسلمين في الروم ، في وقت كانت الآمال كلها معلقة به ليتمم ما بدأه من الانتصارات على الروم ، لأنه خشي أن يفتتن الناس به .

فهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما فعله من ذلك مبالغاً ؟

وهل كان عمر رضي الله عنه فيما عمد اليه من قطع الشجرة أو عزل خالد مبالغاً ؟

فلماذا تنسب الوهابية وحدها إلى المبالغة ، وهذه أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأفعال خلفائه الراشدين على ما قدمنا .

وعلى فرض أن الوهابية بالغت في ذلك ، فإنها مبالغة محمودة كان من نتيجتها استئصال شأفة الشرك ، واجتثاث جذور الوثنية من الجزيرة العربية ، في الوقت الذي لا تزال فيه كل بلاد الإسلام تعاني من ذلك ما تتفتت على صخرته كل قواعد التوحيد والإيمان .

وإذاً فليست المسألة يا سعادة الدكتور مسألة ضيق في الأفق والفهم للتوحيد ، ولكنها الحيطة الواجبة لأعظم أصل في الاسلام وهو التوحيد .

وأما ما ذكره سعادته من أن تشدد الوهابية في موضوع التوحيد قد تسبب في حصول الفرقة بينها وبين من يسميهم مسلمين فذلك أمر حتم ، إذ لا يعقل أن يرضى الباطل عن الحق أبداً .

ولكن وزر هذه الفرقة لا يقع على الوهابية ، فإنها تدعو كل المسلمين إلى الدخول في دين الله الحق ، كما يصوره القرآن الكريم والسنة المطهرة ، بعيداً عن كل شوائب الانحراف والضلال .

ولا يجوز لأحد أن يطلب من الوهابية أن تجامل أو تداهن ، لا سيما في موضوع يتعلق بأصل الأصول في الدين وهو التوحيد .

بل هي مستعدة حينئذ لأن تكون وحدها في طرف ، والدنيا كلها في طرف ، حيث لا مجال لمساومة أو مجاملة .

الجاهلية الأولى والجاهلية الثانية :

ثم يقول سعادته : « لأن زيارة القبور وإقامتها على وجه الأرض سوف لا يعيد الآن بحال ، وضع الوثنية العربية الأولى على عهد الدعوة الإسلامية ، ومن ثم لا وجه لخشية الشرك فضلاً عن وقوعه ممن يقيم القبر أو يزوره » .

فانظر إلى أي حد يتجاهل دكتورنا الواقع الملموس ، كأنه لا يرى ولا يسمع ، وكأنه يعيش لا في دنيا البشر التي لا تزال في قرنها العشرين ــ قرن الذرة والصاروخ ــ تتمرغ في أوحال الوثنية على جميع صورها ومظاهرها .

والعجب أن يصدر هذا الكلام من رجل كان مسئولاً في يوم من الأيام عن تلك القبور الشاهقة التي تزخر بها القاهرة وغيرها من مدن مصر بل وقراها ، ويعرف جيداً ما يرتكب عندها وحولها من أفانين الشرك ولوثات الوثنية مما ذكرنا بعضه آنفاً .

فهل يستطيع سعادته أن يدلنا على شيء واحد كانت تفعله الوثنية العربية الأولى وليس موجوداً في تلك الجاهلية الثانية ؟

أم إن سعادته يعتبر هذه الأعمال وثنية إذا تقرب بها إلى

اللات والعزى ومناة وهبل ، ولكنها تنقلب توحيداً إذا تقرب بها إلى المشايخ المقبورين .

لقد كشف لنا كلام سعادته هذا عن لغز عسر علينا حله ، وهو أنه حين كان وزيراً للأوقاف اشرأبت إليه أعناق أنصار التوحيد ، وانتظروا منه أن يقوم بخطوة جريئة في الاصلاح : فيغلق على الأقل هذه الأضرحة ولا يسمح بزيارتها ، ويلغي تلك المهرجانات الشركية التي تقام لأصحابها ، ولكنه لم يصنع من ذلك شيئاً ، وكأن الأمر لا يهمه ولا يعنيه .

وثنية الأموات ووثنية الأحياء :

ثم يقول سعادته : « والوثنية التي يمكن أن توجد في القرن العشرين ليست وثنية الأحجار والأموات ، إنما هي وثنية الأحياء أصحاب السلطان والنفوذ . ولا يقضى على هذه بالدعوة إلى هدم القبور وتحريم زيارتها ، وإنما بتحقيق شعور المساواة بين الحاكم والمحكوم » .

وهذا ليس بصحيح ، فإن وثنية الأحجار والأموات لا تزال قائمة فعلاً في كل مكان من الدنيا ، ولا يزال الأنسان هو الانسان

لم يستطع أن يتخلص من سيطرة أوهامه أو فساد تخيلاته ، رغم ذلك التقدم الهائل في العلوم والمخترعات .

ولعل سعادته يعرف أن أعلى الناس ثقافة في مصر ، هم أكثر من غيرهم تعلقاً بالخرافات والأوهام ، والمكابرة في ذلك مكابرة في شيء محسوس وواقع لا تليق بآحاد الناس فضلاً عن دكتورنا الفيلسوف .

وأما وثنية الأحياء من أصحاب النفوذ والسلطان ، فلا وجود لها بحمد الله في ظلال الوهابية ، لأنها تحارب كل أشكال الوثنية ، لا فرق عندها بين وثنية الأحياء ووثنية الأموات ، ولهذا تعيش الدولة السعودية التي تدين بالوهابية في ظل ديمقراطية حقة ، لا يحس فيها المواطن بفرق بين حاكم ومحكوم ، بل يعرف كل مواطن أن الحاكم إنما وضع في مكانه لمصلحة المحكوم .

فها هو مليك البلاد وعاهلها ، يتصل بشعبه اتصال الأب الرحيم ، ويجلس إلى المواطنين كل يوم خميس في قصر الحكم بالرياض ، فيتوافدون للسلام عليه ، وتقديم الطلبات والشكايات إليه ، وهو لا يرى الحكم سيطرة واستعلاء ، ولكن يراه رعاية ومسئولية .

ومن قبل كان والده المغفور له جلالة الملك عبد العزيز ،

مثلاً عالياً في الديمقراطية والشعبية ، وقد كان لنا منه مجلس كل أسبوع ، حين كنا ندرس بكليات الرياض ، فيجلس بيننا متبسطاً ، ويخوض معنا في شتى الأحاديث التي تهم الاسلام والمسلمين .

ويؤسفنا أن نقول إن الدكتور الذي يتحدث عن القضاء على وثنية الأحياء بالنسبة للحركة الوهابية ، عاش هو نفسه تلك الوثنية ومارسها فعلاً حين كان وزيراً للأوقاف ، حيث كان يعامل موظفي وزارته بأقسى ما يُتصور من ألوان العسف والإرهاب .

مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين من الائمة المهديين :

ثم يقول سعادته : « تنادي هذه الحركة باتباع مذهب السلف في صفات الله ، وهو المذهب المعروف بالتفويض في كيفية اتصافه بها ، بعد الايمان بأنه سبحانه يتصف بها ، وبذلك لا ترى رأي المعتزلة القائلين بأنها عين الذات ، وليست غير الذات . كما لا يرون رأي الأشاعرة القائلين بأنها ليست غيراً وليست عيناً » .

أما أن هذه الحركة تنادي باتباع مذهب السلف في صفات

الله تعالى ، فهو أمر واضح ، بل لعلها الآن هي الحركة الاسلامية الوحيدة التي تتبنى هذا المذهب السلفي ، وتعمل ما وسعها الجهد على نشره والدعوة إليه بمختلف الوسائل ، لا سيما عن طريق طبع الكتب والرسائل التي ألفت في مناصرته قديماً وحديثاً .

وهو يدرس في كل مراحل التعليم بالسعودية ، ولا يسمح لأي مذهب آخر بمزاحمته .

ولكن ما معنى قول الدكتور بعد ذلك إن هذه الحركة لا ترى في صفات الله تعالى رأي الأشاعرة ولا رأي المعتزلة . فهل هذا عيب فيها أنها لم تأخذ في صفات الله بواحد من هذين المذهبين المنحرفين ، وأخذت بمذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين ، كما فعل ذلك من قبل شيخ الاسلام ابن تيمية وتلامذته .

ثم إن هذه الحركة لا تجعل من صفات الله تعالى مشكلة كما فعل غيرها ، ولا تجعلها موضع مناقشة جدلية . بل تأخذ فيها بالبساطة المعروفة عن العقيدة الاسلامية الأولى ، قبل أن تنشأ تلك التعقيدات التي أثارها المتكلمون .

حركة لم تقم للهدم بل للبناء

الآن وقد فرغنا من التعليق على نقد الدكتور لأسس الحركة الوهابية ، نشرع — إن شاء الله — في التعليق على نقده للحركة ذاتها .

يقول سعادته : « ويلاحظ فيما عرضنا لعناصر هذه الحركة، من الجهة الفكرية :

أولاً — أن حركة محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر ، قامت على أساس التمذهب بمذهب معين وهو مذهب أحمد ابن حنبل . ولأنها أسست على التمذهب بمذهب معين تعتبر امتداداً في التمسك بالمذاهب الإسلامية كل منها على حدة ، وتمثل طوراً من أطوار التبعية لمذهب خاص » .

ويظهر من هذ أن الدكتور يعيب على الحركة الوهابية تقليدها لمذهب معين ، وهو مذهب أحمد رحمه الله ، فهل كان يريد من

الوهابية مثلاً أن تنشيء في الفروع الفقهية مذهباً جديداً يضاف إلى المذاهب الأربعة المعروفة ، فتكون بذلك مذهباً خامساً كما يرميها بذلك خصومها ؟

إن الوهابية لم تقم للاجتهاد في الفروع ، ولكنها قامت لتصحيح الأصول ، فإن الفروع أمرها هين ، وقد أجمعت الأمة على جواز التقليد فيها لمن لا يقدر على الاجتهاد ولا تتوفر لديه وسائله ، إذ لا يعقل أن نطلب من كل فرد في الأمة أن يكون مجتهداً .

فقول الدكتور إنها أسست على التمذهب بمذهب معين غير صحيح .

فهي لم تدع إلى التمذهب بالمذهب الحنبلي أو غيره ، ولكن اتفق أن مؤسسها رحمه الله كان حنبلياً في الفروع .

ولو كان مالكياً أو شافعياً ما تغير الوضع بالنسبة للدعوة ، فإنها دعوة عامة لأتباع المذاهب الأربعة وغيرهم ، هدفها تطهير العقائد من الشرك ومحاربة الخرافات والبدع .

وبذلك لا تعتبر الدعوة — كما يدعي الدكتور — امتداداً في التمسك بالمذاهب الإسلامية المنفردة ، ولا تمثل طوراً من أطوار

التبعية لمذهب خاص .

إذ لو كانت كذلك لاقتصرت على أتباع المذهب الحنبلي ، ولم تحاول هداية الناس من أتباع المذاهب الاخرى .

الخصومة المذهبية ليست من فعل هذه الحركة :

ثم يقول سعادته : « ثانياً — إذ تنادي هذه الحركة بالرجوع إلى مذهب السلف ، لا تعني أكثر من إبعاد القياس والعرف ، مع التزام نصوص القرآن والحديث الصحيح في الفقه في دائرة التشريع وبذلك تستمر في مجال الخصومة المذهبية » .

وهنا يتناقض الدكتور مع نفسه ، فبعد أن ادعى في التعليق الأول أن الحركة تتمذهب بمذهب معين ، أعلن هنا أنها تنادي بالرجوع إلى مذهب السلف ، فتلتزم نصوص القرآن والحديث الصحيح ، وتبعد القياس والعرف في دائرة التشريع .

ثم يتناقض مرة أخرى حين يدعي أنها بالرجوع إلى مذهب السلف ، تستمر في مجال الخصومة المذهبية ، وقد كان العكس هو الصحيح .

على أن هذا الكلام كله سواء مقدماته أو نتيجته غير صحيح ،

فإن الحركة إنما نادت بالرجوع إلى مذهب السلف في العقائد التي هي الأصول ، لأن السلف كانوا فيها على رأي واحد ضد أهل الأهواء من الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة والجهمية ونحوهم .

وأما في الفروع أو العمليات فلم يكن للسلف فيها مذهب خاص حتى تنادي الحركة بالرجوع إليه ، كما أنها لم تستبعد القياس والعرف — كما يدعي الدكتور — فإن هذا مذهب الظاهرية . ولكنها فقط كانت تأخذ برأي أحمد رحمه الله ، في تقديم النص وإن كان ضعيفاً على القياس ، وأما الاستمرار في مجال الخصومة المذهبية ، فهو ليس من فعل هذه الحركة ولا هدف لها ، وهي أبعد ما تكون عن التعصب المذهبي في مسائل الخلاف .

وحسبك دليلاً على أن جميع المذاهب الفقهية تدرس الآن في الدراسات العليا بكلية الشريعة بمكة المكرمة إلى جانب الفقه الحنبلي في مادة « الفقه المقارن » .

كما أنه لا يوجد بين المذاهب الفقهية مذهب هو أوسع صدراً لقبول الآراء المختلفة من المذهب الحنبلي ، إذ قلما توجد مسألة

فقهية إلا وفيها لاحمد رحمه الله روايتان أو ثلاث .

ولهذا يتسع المجال أمام علماء هذا المذهب لحرية الاختيار والترجيح الذي قد يتجاوز حدود المذهب ، كما هو معروف عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمها الله في اختياراتهما التي انفردا بها عن جمهور الحنابلة .

وكذلك العلامة ابن قدامة رحمه الله صاحب كتاب « المغني » درج في كتابه العظيم ، على أن يعرض في المسألة الواحدة كل المذاهب بأدلتها ، ثم يرجح بعد ذلك أقواها دليلاً ولو كان غير مذهبه الحنبلي .

فأين إذاً تلك الخصومة المذهبية في الحركة الوهابية وأين مظاهرها ؟

الوهابية والتراث الإسلامي :

ثم يقول سعادته : « لم تقصد أول الأمر أن تكون حركة « عود على بدء » على معنى تصفية العصبية للمذاهب الفقهية ونخلها في التشريع والمعاملات ، ولمذاهب العقيدة في تصور الله والاعتقاد به عن طريق علمي » .

ومعنى هذا الكلام ــ فيما بلغه فهمي ــ أن الدكتور عفا الله عنه ، كان يريد من الحركة الوهابية أن تشن الثورة على جميع المذاهب الفقهية التي استحدثت في الإسلام ، فتقوم بنخل هــذه المذاهب ، لتأخذ منها ما تراه صالحاً ، ثم تلغي ما بقي ، وبذلك تكون قد صفت العصبية المذهبية .

والعجب أن يصدر مثل هــذا الكلام الخطير من دكتور فيلسوف يؤمن بحرية الرأي ، ويدعو إلى بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً ، لأن إغلاقه ــ كما ذكر في كتابه ــ قد أدى إلى الركود والتخلف وعدم القدرة على مواجهة المستجد من أحداث الحياة .

إن الحركة الوهابية لو قامت ــ لا قدر الله ــ بمثل هذه الحماقة ، لارتكبت أعظم خطأ في تاريخها ، ولجلبت على نفسها نقمة العالم الإسلامي المتحضر كله .

وإذا كان الدكتور يرمي الحركة بالتعصب المذهبي ، وهي لم تفعل ذلك ، فماذا كان يرميها لو قامت بمثل تلك المحاولة التخريبية لتصفية مذاهب لها كيانها واحترامها ، ولها أئمتها الكبار الذين أفنوا أعمارهم في الاجتهاد ، ولها قواعدهــا في التعليل والاستنباط والموازنة .

إن الفقه الإسلامي بما تضمنه من ثروة هائلة في التشريع ، وبما اتسم به من مرونة وقدرة على تكييف الأحداث ، ومواجهة متطلبات الحياة ، يعد مفخرة من أعظم مفاخر هذه الأمة يشهد لها بالأصالة والجدة في هذه الناحية التشريعية .

فكيف يراد من حركة إسلامية قامت للبناء لا للهدم ، أن تقضي على هذا التراث الضخم ، فتسجل بذلك قصوراً في النظر وضيقاً في التفكير .

وكيف تتفق دعوة الدكتور إلى هذا التخريب ، مع قوله في كتابه يمدح الحركة الفقهية وتطورها : « وكذلك الشأن بالنسبة للعامل الثالث وهو مواجهة أحداث الحياة وتطور المجتمع الإسلامي ، فإن تفاعل الإسلام مع هذا العامل كان تفاعلاً خصباً منتجاً ، وبرهن على مرونة الإسلام في مبادئه بفضل الاجتهاد ، وعلى سعة استيعابه للمستجد من مشاكل الحياة ، فالفقه الإسلامي تدل كثرة مذاهبه ومدارسه على سعة المحاولة لتكييف الأحداث من وجهة نظر الإسلام .

« والخلاف الذي بينها في اعتبار بعض أصول التفقه والمراجع التي ترد إليها أحكام الحوادث ، لم يكن إلا خلافاً ناشئاً عن رغبة

المختلفين في ضرورة الحرص على بقاء الجماعة الإسلامية آخـــذة بالإسلام في منهاج حياتها اليومي » .

وأما في مذاهب العقيدة في تصور الله عز وجل والاعتقـاد به ، فقد حققت هذه الحركة المباركة مبدأ : « عود على بدء » كما يريد الدكتور .

فقد عادت بالناس إلى العقيدة الإسلامية الأولى في بساطتهـا ونقائها ، وحاربت كل ما أحدث في هـذا الجانب العقدي من مذاهب ومقالات .

وكانت نشاطاتها في هذه الناحية امتداداً صحيحاً لحركة التصحيح الكبرى التي بدأها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

ليس تقليـداً بل موافقـة الحق للحق :

ثم يقول الدكتور : « رابعاً ـ الحركة الوهابية تقليد آخر ، ليست تجديداً انطوى على استقلال في بيان قيمة المذاهب الإسلامية في العقيدة والتشريع في المعاملات وفقه العبادات .

هي تقليد لحركة الشيخ تقي الدين بن تيمية في ذلك ، وليست استمراراً لحركته في نقدها ، في هدمها وبنائها » .

ولست أدري لماذا يلح الدكتور في رمي هذه الحركة بالتبعية والتقليد ، وعدم الإبتكار والتجديد ؟ مع أن التقليد ليس على الإطلاق مذموماً ، ولا التجديد على الإطلاق ممدوحاً .

ثم لماذا شغف بكثرة التعداد لأخطاء الحركة ، وما الذي يهدف إليه من ذلك ، فإن هذا الذي ذكره « رابعاً » هو الذي سبقه أولاً وثانياً وثالثاً ! ..

وأما نعته الحركة بأنها تقليد آخر ، وليست تجديداً انطوى على استقلال في بيان قيمة المذاهب الفقهية ، فهذا ليس من شأن الحركة ولم تقم لأجله كما قدمنا ، وإنما قامت من أجل تجريد التوحيد وتنقيته من أكدار الشرك ، وإحياء مذهب السلف في العقيدة .

وإذا كانت الحركة قد استفادت من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الجانب ، فإن ذلك لا يعد تقليداً ، بل هو من موافقة الحق للحق .

كما لو قرأ الدكتور نظرية لأحد فلاسفة الغرب فأعجبته واقتنع بصحتها بعد دراسة وتأمل ، فهل نسميه مقلداً لذلك الفيلسوف صاحب النظرية ؟

إن معنى التقليد أن تؤخذ قضايا الأولين مسلمة من غير نظر في الأدلة المثبتة لها ، وأما الإيمان بها عن دليل واقتناع فلا يسمى ذلك تقليداً .

ولو فرضنا ذلك تقليداً ، فليس يعيب الحركة أن تقلد في الحق ، وأن تتأسى فيه بمن سبق .

وأما قوله إنها ليست استمراراً لحركة ابن تيمية في النقد أعني الهدم والبناء ، فليس بصحيح ، فإن موقفها من المذاهب المنحرفة في العقيدة من معتزلة وجهمية وأشعرية ومرجئة الخ هو نفس موقف ابن تيمية من حيث الرد عليها والاشتغال بإبطالها .

وكذلك موقفها في الناحية الإيجابية ، أعني الدعوة إلى إحياء مذهب السلف وبيانه ، وإقامة الحجج المثبتة له هو عين موقفها .

ولعل الدكتور لو قرأ ما كتبه مؤسس هذه الحركة وعلماؤها من بعده ، لما رماها بما رماها به من الجمود والسلبية ، ولتغيرت نظرته إليها وخفت قسوته في الحكم عليها .

مفخرة من مفاخر هذه الدعوة :

ثم يستدرك الدكتور على ما سبق بقوله : « ولكن إن كانت

تعتبر تقليداً أو استمراراً لطور التقليد ، فإنها تتميز بأنها صانت آراء ابن تيمية وعنيت بها في القرن الثامن عشر بعد مدة أربعة قرون لم تلق فيها تلك الآراء العناية الكبرى التي لقيتها من جانب حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب » .

وهنا نلمح في كلام الدكتور شيئاً من التقدير والإنصاف للدعوة الوهابية ، بسبب صيانتها لآراء ابن تيمية وعنايتها باحيائها ونشرها .

وتلك مفخرة من مفاخر هذه الدعوة ستظل تذكر لها بالعرفان والتقدير ، فان كتب شيخ الإسلام ورسائله كانت مطمورة تحت ركام الإهمال والنسيان ، لا يسمح لها أهل البدع والإلحاد أن ترى النور ، ولا أن تقوم بدورها الخطير في توجيه العالم الإسلامي نحو الطريق الصحيح .

بل كثيراً ما كانوا يحذرون **من** قراءتها ويقرنونها بكتب الفلاسفة في جواز الاستنجاء بها .

فلما قامت هذه الحركة المباركة أخذت تنقب عن تلك الثروة الهائلة التي خلفها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمها الله ، وجدّ المسئولون عن هذه الدعوة في إبراز هذه الكنوز بالطبع والنشر .

وكان لجلالة الملك عبد العزيز ـ غفر الله له وأجزل مثوبته ـ اليد الطولى في هذا الباب ، حتى أصبحت كتب الشيخين الجليلين تملأ المكتبات العامة والخاصة .

وأخذت العقيدة السلفية التي كانت قابعة في زوايا كتب الكلام ، حيث تذكر ولا تقدر ، وتعتبر مذهباً للحشوية والعوام ، أخذت مركزها الصحيح في القيادة والتوجيه ، بعـــد قراءة كتب هذين الإمامين اللذين لم يأت الزمـــان لهما بنظير في الجمع بين المعقول والمنقول ، فكتبهما الآن هي المنارة التي تضيء السبيل لكل مستقيم الفكر بريء من الهوى والتقليد ، وآراؤهما أصبحت محل التقدير العظيم في جميع الأوساط والمحافل العلمية .

حركة امتازت بالاحياء والتجديد :

ثم يقول الدكتور : « وهي تعتبر قنطرة لآراء ابن تيمية مرت عليها إلى الأجيال القادمة ، وتعضيد السلطة الرسمية السعوديـــة أعطاها قوة البقاء والاستمرار » .

ونحن لا نوافق الدكتور على أن الحركة الوهابية كانت مجرد قنطرة عبرت عليها آراء شيخ الإسلام إلى الأجيال القادمة . بـل

إن هذه الآراء تعتبر جزءاً أساسياً من الجانب النظري لتلك الحركة بحيث لا يمكن الفصل بينها أو اعتبار أحدهما أجنبياً عن الآخر .

وأما قوله إن تعضيد السلطة الرسمية السعودية هو الذي أعطى الحركة قوة البقاء والاستمرار فذلك حق لا ريب فيه .

فإن البيت السعودي المالك ــ حرسه الله ــ قد وفى بما عاهد عليه مؤسس الحركة ، من حمايتها والدفاع عنها ضد أعدائها الكثيرين من المعطلة والقبوريين والصوفية .

ولكن يجب أن يضاف إلى ذلك القوة الذاتية للحركة نفسها .

ثم جهود آل الشيخ ــ حفظهم الله ــ وعلماء الدعوة في توضيحها والدفاع عنها .

ثم يقول الدكتور : « ولهذا تعتبر الحركة الوهابية بعده الحركة الإسلامية التي حوت بذور النقد بصفة عامة وقدمتها إلى الحركات الاسلامية الأخرى في القرن التاسع عشر والعشرين ، ومن أجل ذلك تعتبر تمهيداً لهذه الحركات ، كما تعتبر نوعاً من « التقدمية » بالقياس إلى عصور التبعية المطلقة ، لأن طابع النقد صاحبها وإن لم تسر فيه بخطوات واضحة » .

وهنا أيضاً تبدو على كلام الدكتور مسحة من الانصاف للحركة وتقدير الدور العظيم الذي قامت وتقوم به في ايقاظ الوعي

الإسلامي ، وتصحيح المفاهيم الإسلامية المحرفة ، بحيث تعتبر أساساً لما قام بعدها من حركات تقدمية .

كما اعترف الدكتور بأنها حركة امتازت بالإحياء والتجديد ، وقامت على أساس من النقد البريء ، ولكننا مع ذلك لا نوافقه على أن الحركة حوت بذور النقد لتقدمها إلى الحركات الإسلامية الأخرى فقط ، فإن معنى ذلك أنها كانت مجرد ناقل أو وسيط ، دون أن تقوم هي بإحياء حركة النقد وإنمائها

والواقع أن هذه الناحية كانت من أهم ما عنيت به الحركة نظراً لكثرة المعارضين لها .

نعم يمكن القول بأن أسلوب النقد فيها لم يبلغ درجة النقد عند ابن تيمية من حيث الدقة والعمق ، وذلك لأنها نشأت في جو تقل فيه العناية بالدراسات النقدية وأسلوب المناظرات .

في هذا الكلام خطآن :

ثم يقول سعادته : « ومن المعروف أن ابن تيمية في هجومه على الشيعة كان يقصد فرقة الغلاة منهم التي سماها الرافضة ، وكان يوجه نقده على الأخص لجماعة الباطنيين أو التعليميين منهم . مع

ذلك لما ورثت الحركة الوهابية اتجاه ابن تيمية وسعت شقة الخلاف بين السنة والشيعة عامة ، وغالت في تصوير الشيعة على الإطلاق ، وأصبحت الفجوة كبيرة في النزاع المذهبي بين السنة والشيعة منذ القرن الثامن عشر الميلادي ، بل أصبحت أشد من ذي قبل ، وكانت زيادة الفجوة على هذ النحو أثراً سلبياً للدعوة الوهابية » .

وفي هذا الكلام خطآن : خطأ على ابن تيمية رحمه الله ، وخطأ على الحركة الوهابية .

أما الخطأ على ابن تيمية ففي ادعاء أنه لم يقصد في هجومه على الشيعة إلا فرقة الغلاة منهم وهم الروافض لاسيا جماعة الباطنية أو التعليمية .

فان ابن تيمية — رحمه الله — لا يقر التشيع في أي صورة من صوره ، غالياً كان أو معتدلاً ، ويعتبره انحرافاً عن جادة الحق ، واتباعاً لغير سبيل المؤمنين .

لا سيا والشيعة كلهم يشتركون في مبادىء عامة بعيدة عن روح الإسلام ، كالقول بالرجعة والتقية وعصمة الأئمة وسب الصحابة ونحو ذلك .

وأما الخطأ على الحركة الوهابية ففي ادعاء أنها وسعت شقة

الخلاف بين السنة والشيعة ، وغالت في تصوير الشيعة عامة دون تفريق بين غلاة ومعتدلين .

فنحن لا نعرف للحركة الوهابية موقفاً خاصاً من الشيعة غير موقف أهل السنة كلهم ، اللهم إلا أن يكون ذلك الموقف الخاص بالحركة هو محاربتها لغلو الشيعة في آل البيت ، ورفعها إياهم عن مستوى البشر .

نعم إن الحركة الوهابية لم تتورط مع الشيعة في تقارب مزعوم كما تورطت « جماعة التقريب » في مصر — ولعل سعادة الدكتور كان عضواً فيها — لأنها لا تجد وجهاً للتقارب مع الاختلاف الجذري في الأسس والمبادىء .

على أن الواقع نفسه يشهد بخطأ الدكتور فإن هناك مناطق كبيرة من المملكة العربية السعودية في الأحساء والقطيف وغيرهما أغلبية سكانها من الشيعة ، وهم يلقون من حكومة جلالة الفيصل — حفظه الله — نفس العناية التي يلقاها سائر المواطنين في نواحي التعليم والصحة والزراعة والمواصلات ، بلا فارق أصلاً .

كما أن علاقة المملكة بالدول التي توجد فيها أغلبية شيعية كإيران وباكستان ولبنان علاقة طيبة ووطيدة .

ولا تزال الشيعة كل عام تحج البيت الحرام بأعداد هائلة ، ويلقون من المسئولين نفس المعاملة التي يلقاها جميع الحجاج من أهل السنة .

تأثير الدعايات المغرضة :

ثم يقول سعادته : « يضاف إلى هذا الأثر السلبي لها في هذا الجانب ، أثر سلبي آخر أتت به في مسألة القبور وزيارتها .

فتشددها في تحريم شد الرحال إلى القبور ــ وهو رأي أو عقيدة سليمة في أصلها ــ حدا برجال السلطة السياسية القائمين على صيانة الحركة الوهابية ونموها ، أن يمعنوا في إزالة القبور وانتهاك حرمة الموتى ، وعلى الأخص انتهاك حرمة رجال من الصحابة كان لهم أثر لا ينكر في الدعوة الإسلامية » .

ومن هذا النص يتبين جلياً أن الدكتور الفيلسوف كان واقعاً تحت تأثير الدعايات المغرضة وهو يكتب هذا الكلام .

وإلا فما معنى أن يرمي الحركة بالتشدد في تحريم شد الرحال إلى القبور ، مع اعترافه بأنها عقيدة سليمة ؟ وما معنى أن يريد من الحركة أن تخون مبادئها في صيانة التوحيد فتسكت على هذه

البدع الماثلة في هذه القباب العالية من أجل إرضاء العواطف الحمقاء ، تسمح بشد الرحال إليها للاستغاثة والتوسل ، بعدما جاء النهي الصريح عن ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » . وهو حديث متفق عليه .

وأما الذي فعلته السلطة السياسية فانه لم يزد على تنفيذ ما أرشد إليه علماء الحركة ، من هدم القبور وتسويتها تنفيذاً لأوامر الشرع ، وليس انتهاك حرمة الموتى كما يزعم الدكتور ، فان الوهابيين ــ ساسة وعلماء ــ أعرف بأقدار هؤلاء الموتى وأشد احتراماً لهم من كثير ممن يتباكى على أطلال قبورهم .

إن الربط بين إزالة القبور وانتهاك حرمة الموتى ، لم يقصد منه ــ فيما يبدو ــ إلا الإثارة والتشنيع وتصوير الحركة بصورة تنفر منها القلوب .

ولست أدري لمصلحة من يقول الدكتور هذا الكلام الآن ؟ مع أنه قد مضى على هذه العمليات ما يقرب من خمسين سنة .

حركة إصلاحية أم اكاديمية علمية :

ثم يقول سعادته : « ولو أن الحركة الوهابية سارت في نخل الآراء الإسلامية في مذاهب الجماعة الإسلامية المختلفة ، وساعدت على إيجاد حركة علمية تهدف لهذه الغاية ، ثم ولت وجهها نحو الحضارة المعاصرة والفكر المعاصر ، واتخذت منها موقفاً يمليه عليها الكتاب والسنة ، قبل أن يتحزب في تفسيرها المسلمون ، وقبل أن يفرقوا دينهم شيعاً وأحزابا ..

لو أنها فعلت ذلك لأفادت في بناء حركة علمية إسلامية ، ولأفادت كذلك في تنوير الرأي الإسلامي بالمقومات السلبية التي تصاحبها بما قد لا يستسيغه ميزان الكتاب والسنة ، ولأفادت ثالثاً في نهضة شعب عربي في الجزيرة العربية نهضة اجتماعية وتوجيهية ، بحيث تصلح أن تكون عنواناً واضحاً لحكم حديث قام على أسس إسلامية » .

فاعجب لدكتورنا الكبير كيف يطلب من حركة إصلاحية دينية قامت لتحقيق أهداف محدودة ، أن تقوم بما لا تستطيع أن تقوم به أكاديمية علمية .

فهو يكلفها أن تقوم لا بغربلة الآراء الإسلامية فحسب بـــل بنخلها ، وهو لا يكلفها ذلك بالنسبة لمذاهب معينة فقط بل في مذاهب الجماعة الإسلامية المختلفة .

ولست أدري لماذا تكلف الوهابية وحدها بذلك العمل الضخم ، ولماذا لم يتوجه الدكتور الفاضل بمشروعه الخيالي إلى الأزهر مثلاً وقد كان مديراً لجامعته ، وكان بطل حركة التطوير فيه .

وأما مساعدتها على ايجاد حركة علمية فان الدكتور يعرف أن الحركة العلمية قائمة بالمملكة من أكثر من ربع قرن مضى . وقد كان وهو مدير للبحوث يقوم باختيار أقوى الأساتذة لتدريس بكليات المملكة ومعاهدها ، وقد تخرج على أيديهم العديد مـن طلابها .

ويوجد بالمملكة الآن ثلاث جامعات تضم كل واحدة منها عدداً كبيراً من الكليات ، وقد أنشيء قسم للدراسات العليـــا بكلية الشريعة بمكة (إحدى كليات جامعة الملك عبد العزيز) يتكون من ثلاثة فروع :

١ ــ فرع للعقيدة تدرس فيـــه الفرق الكلامية والأديان وتيارات الفكر المعاصر ، وتناقش فيه كل النحل والمذاهب مـن

كلامية وفلسفية على غرار صنيع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

٢ ــ فرع للفقه وأصوله يدرس فيه الفقه المقارن بكل فروعه ، وتمحص فيه الآراء ، ولا يتقيد فيه بمذهب معين بل بما صح دليله وقويت حجته .

٣ ــ فرع للكتاب والسنة يدرس فيه التفسير دراسة تحليلية وتدرس فيه كل علوم القرآن والسنة المطهرة بكل ما يتعلق بها .

وقد تخرج من هذه الأقسام عدد من الطلاب بدرجة ماجستير وقد وضع لائحة لإنشاء قسم للدكتوراه تنفذ من العام القابل إن شاء الله .

وقد أنشىء قسم آخر للدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها .

وبالجملة فالحركة العلمية في المملكة قائمة بحمد الله على قدم وساق ، وقد آتت وستؤتي أكلها كل حين باذن ربها .

الحركة الوهابية والفكر المعاصر :

ولكن ما معنى قول الدكتور بعد ذلك : « ثم ولت وجهها نحو الحضارة المعاصرة والفكر المعاصر » وماذا عسى أن تستفيده حركة دينية إصلاحية من الحضارة المعاصرة ، وهي حضارة

قائمة على أسس مادية بحتة سواء كانت في الشرق أو في الغرب.

ثم ماذا عسى أن تستمده كذلك من الفكر المعاصر وهو فكر إلحادي يقوم على مبادىء دارون وسبنسر وشاخت وسارتر؟

ثم ماذا عسى أن يكون موقفها من ذلك الفكر وتلك الحضارة على ضوء الكتاب والسنة، إلا موقف الإنكار والاحتقار وبيان ما فيها من سموم ناقعة، وتحذير المسلمين من الاغترار ببريقها.

ولست أدري كيف جمح الخيال بدكتورنا الفيلسوف حتى تصور دعاة الوهابية نخبة من الفلاسفة الكبار، فهو يطلب إليهم فوق تخلهم للآراء الإسلامية أن ينصبوا الموازين كذلك لفلسفات الغرب لتقويمها على ضوء الكتاب والسنة.

إن هذه الفلسفات والأفكار المعاصرة التي يطلب الدكتور من الحركة أن تولي وجهها شطرها، ليس فيها ما هو ذو قيمة فكرية حتى تستفيد منه الوهابية أو أية حركة إسلامية أخرى، فإن الإسلام أغنى من كل هذه الفلسفات في الناحية الفكرية أو النظرية، فلا يحتاج أبداً إلى ما عند الآخرين، بل هم الذين يحتاجون إلى ما عندنا إذا أرادوا تقويم أفكارهم أو تصحيحها.

وأما في الناحية الصناعية والتكنولوجية فلا بأس أن نستفيد مما عندهم من ذلك لأنهم سبقونا في هذه الناحية .

إن بناء حركة علمية إسلامية لا يتوقف أبداً على مذاهب فلاسفة الغرب وأفكارهم ، لأنها لا تصلح مقومات ولا مبادىء لأية حركة علمية إسلامية ، حيث إنها مذاهب وأفكار قائمة على اللادينية البحت .

الحركة العلمية في المملكة السعودية .

ومع ذلك فالحركة العلمية في المملكة السعودية لم تغفل الإفادة من الحضارة والفكر المعاصرين ، فقد أرسلت العديد من أبنائها إلى جامعات أمريكا وأوربا ليتخصصوا في فروع العلم المختلفة ، وقد أتم كثير منهم دراسته ورجعوا إلى بلادهم حيث يقومون بالتدريس في جامعاتها ، وبما تؤهلهم له تخصصاتهم من أوجه النشاط المختلفة .

وأما من حيث تنوير الرأي الإسلامي بالمقومات السلبية لتلك الفلسفات ، مما لا يسيغه ميزان الكتاب والسنة ، فهذا هدف من

أهداف الدعوة الآن تسلك اليه مختلف الوسائل ، فهي جاهدة في إيقاظ الوعي الإسلامي ، وتحذيره من تلك الوافدات الأجنبية ، وبيان ما فيها من سموم وانحرافات .

وأما قول الدكتور : « ولأفادت ثالثاً في نهضة شعب عربي في الجزيرة ... الخ »

فإن الواقع هو أبلغ رد على ذلك فالنهضة التي يعيشها الشعب العربي الآن في جزيرته ، تسابق الزمن في سرعته وتتخطى الحواجز والمعوقات بسرعة مذهلة .

ومن رأى هذا الشعب من عشرين عاماً فقط ، ثم رآه الآن ، فإنه لا يكاد يصدق عينيه حين يرى تلك الجهود الضخمة التي تبذل في جميع المجالات العلمية والإعلامية والصحية والاجتماعية ، وحين يرى شباباً متفتحاً على الحياة يسير بخطى واسعة في طريق التقدم والبناء .

وبالجملة فهي نهضة شاملة تحارب التخلف في كل صوره ومظاهره ، وتقفز إلى الأمام ولكن في تؤدة وثبات ، بحيث يمكن القول إنها أوضح عنوان لحكم حديث قام على أسس إسلامية .

ومن العجب أن يصدر هذا الكلام منذ سنتين فقط ، أي

في عنفوان النهضة التي تشهدها المملكة السعودية الآن في ظل حكم الفيصل العظيم .

فأين يعيش دكتورنا الكبير حتى لم يسمع بما سمع به القاصي والداني لا في البلاد العربية والاسلامية وحدها ، بل في الدول الغربية كلها من أوروبية وأمريكية .

حركة جاءت للتصحيح :

ثم يقول سعادته : « إن الحركة الوهابية تشددت فيما وسع الخلاف بينها وبين الشعوب الاسلامية الأخرى ، وبالأخص بينها وبين الجماهير في هذه الشعوب » .

وهكذا يرجع الدكتور مرة أخرى إلى تلك النغمة الكريهة فيرمي الحركة بالتشدد فيما وسع الخلاف بينها وبين الشعوب الاسلامية الأخرى .

فهل معنى هذا أن الحركة كان يجب عليها أن تسكت على البدع والمنكرات تضييقاً لشقة الخلاف وإرضاء للجماهير الاسلامية ؟ وحينئذ ما تكون مهمتها وما معنى كونها حركة ؟

وكيف يراد من حركة قامت للتصحيح والتقويم ، أن تتغاضى

عما تراه من انحرافات تجنباً للخلاف ؟

إن الله عز وجل يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وكذلك الجماهير لا ترضى إلا عمن يجاريها على أهوائها ويحبذ لها مألوفاتها .

وهذا يشبه قول بعض المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنك قد جئت بأمر خالفت به قومك وفرقت به جماعتهم » .

أفكان يترك عليه السلام الدعوة إلى الحق والهدى حتى لا يخالف قومه ولا يفرق جماعتهم ؟

والعجب أن يصدر مثل هذا الكلام من دكتور فيلسوف يعلم أن الدعوات لا بد أن تثار في وجهها الخصومات ، ولا بد أن تقابل من أعدائها بكثير من السخط والاستياء ، ولكن هذا لا يصلح مبرراً أبداً لترك الدعوة أو التهاون فيها إبقاء على رضى الناس .

إن الحركة الوهابية تشددت في تنفيذ ما يجب تنفيذه ، رضي الناس أم سخطوا ، وهي لم توسع شقة الخلاف بينها وبين الشعوب الاسلامية حباً منها للخلاف .

ولكن الخلاف كان أمراً ضرورياً بين حركة جاءت للتصحيح

وإزالة البدع والمنكرات ، وبين شعوب جمدت على ما هي عليه من ضلالات وانحرافات .

ثم ما معنى قول الدكتور : « وبالأخص بينها وبين الجماهير » .

ومتى كان للجماهير وعواطفها الهوجاء رأي يجب أن يعتد به في ميزان الحق ، ويترك من أجله ما أوجبه الدين وصرحت به النصوص ؟

الحركة الوهابية بين المجال النظري والتطبيق العملي

الدعوة وتفسيرها التطبيقي :

ثم يقول الدكتور : « إن دعوتها إلى القرآن والسنة صاحبها تفسير تطبيقي عملي لها أبعدها عن الوضع والهدف يوم أن نادى بها ابن تيمية .

صاحبها تفسير تطبيقي عملي لها يشير إلى أنها الدعوة إلى الحياة الصحراوية على عهد الجماعة الإسلامية الأولى ، وليست الدعوة إلى الإسلام الواضح كما يمثله القرآن والسنة الصحيحة ، ذلك الإسلام الذي يساوق الحضارة الصناعية ، ويساوق المستوى الرفيع في الحياة الانسانية ، ويساوق التقدمية في بناء الجماعة بناء سليماً » اهـ.

أما أن الدعوة صاحبها تفسير تطبيقي عملي فهذا صحيح ، ولا

خير في دعوة لايصاحبها تطبيق ولا عمل ، فإنها دعوة عقيمة سريعة الزوال .

وأما ادعاء الدكتور أن هذا التفسير أبعدها عن الوضع والهدف يوم أن نادى بها ابن تيمية فهذا غير صحيح ، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ لو وجد في زمانه القوة التي تسنده وتؤازره ، كما وجدت دعوة شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ لفعل مثل ما فعله أو أشد ، ومع ذلك كان يقوم هو وأتباعه القليلون بما يتسع له جهدهم من إصلاحات عملية ، فالتفسير التطبيقي للدعوة كان يسير وفق المنهج المرسوم لها .

وما يتوهمه الدكتور أو غيره من إساءة للتطبيق ، أو غلو في التنفيذ ، فهذا حكم العاطفة لا حكم المنطق ، إذ لا يليق في المنطق أن ترى الدعوة أشياء منافية للتوحيد ثم تسكت عليها إرضاء لعواطف المتعلقين بها .

وأما قوله إن التفسير التطبيقي للدعوة يشير إلى انها الدعوة إلى الحياة الصحراوية على عهد الجماعة الإسلامية الأولى ، وليست الدعوة إلى الإسلام كما يمثله القرآن والسنة الصحيحة ، فقد تضمن كلام الدكتور هنا عدة أخطاء :

أولاً ـــ وصفه حياة الجماعة الإسلامية الأولى بأنهـــا حياة صحراوية يعني حياة بداوة وتخلف ، مع أنها كانت أرفع نمط للحياة البشرية ، وأرقى ما عرفت الإنسانية من حضارات ، وحسبك منها أنها حضارة قادها القرآن العظيم ، وشاد صرحها أعظم بان عرفته البشرية ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذي ما عرفت الدنيا منذ نشأتها ضريباً له في كل ما هو كمال إنساني .

ما هو الإسلام الواضح ؟

ولست أدري كيف سمح الدكتور لنفسه أن يغمز الحياة الاسلامية الأولى ذلك الغمز الذي لو جاء على لسان أحد الطاعنين في الاسلام من المبشرين والمستشرقين ، لعددناه هجوماً وقحاً فكيف إذا صدر من دكتور مسلم ؟ سامحك الله يا دكتور !

الثاني ـــ رميه الجماعة الاسلامية الأولى بأنهـــا لم تكن على الاسلام الواضح كما يمثله القرآن والسنة ، فاذا لم يكن هؤلاء الرعيل الأول على الاسلام الواضح ، وهم الذين عاصروا نزول الوحي ، وتلقوه من فم الرسول صلى الله عليه وسلم غضاً طرياً ، وسعدوا بصحبته وتربوا على يديه تربية لم تتح لأي جيـــل في

البشرية في عهودها الطويلة .

نقول : إذا لم يكن هؤلاء على الاسلام الواضح فمن يكون إذاً يا معالي الدكتور ؟

الثالث — تفسيره الاسلام الواضح ذلك التفسير الغريب وهو أنه الذي يساوق الحضارة الصناعية الخ . مع أن الاسلام ليس في حاجة إلى تفسيره بذلك ، فانه أعظم من كل صورة صوره بها الدكتور ، إذ هو الطريق الذي لا طريق غيره لكل تقدم ولكل كمال إنساني ، مادياً كان أو روحياً .

وإذا كان الاسلام الواضح في نظر الدكتور هو الذي يساوق الحضارة الصناعية ، ويساوق المستوى الرفيع في الحياة الانسانية ، ويساوق التقدمية ، فان الدعوة الوهابية قد توفر لها ذلك كله ، فليس بين شعوب الأرض الآن شعب يتمتع بكل ما أنتجته الحضارة الصناعية في كل المجالات مثل الشعب السعودي .

ومستوى الحياة الانسانية فيها الآن يفوق مستواها في كثير من الدول التي سبقتها في الحضارة بزمان بعيد .

والمجتمع السعوذي الآن هو الصورة الصحيحة للمجتمع المسلم الناهض المكافح الذي تختفي فيه الجريمة ، فلا يوجد فيه عاطلون ولا

متسكعون ولا رواد مقاهي ولا مدمنو مخدرات ، ولا عصابات سطو ، ولا استبداد حاكم بمحكوم ، ولا مظاهر ذلة وخنوع ونفاق ، إلى آخر ما يوجد في غيره من المجتمعات شرقاً وغرباً .

فإذا لم يكن هـذا كله تقدمية فبم تكون التقدمية ياسعادة الدكتور ؟

الإسلام والحضارة والصناعة :

ثم يقول سعادته : « إنها لم تستسغ حتى الآن من الوجهة النفسية عصر الآلة الحديثة ، فضلاً عن عصر الآلية والتكنولوجيا القائمة ، مع أن الدعوة إلى القرآن والسنة قصد بها أولاً وبالذات سير الحياة الإسلامية في ظل تعاليم الإسلام وفي صحبة الحضارة الصناعية التي لا بد منها الآن لحياة شعب يرتفع بنفسه عن مستوى الحياة الدنيا في المعيشة بما يكتنفها من ضعف وإذلال » .

وأقول إن معرفتي الشخصية بالدكتور البهي تجعلني أستغرب جداً صدور هذا الكلام منه ، إذ أن فيه من الخلط والعفوية ما لم نعهده في الدكتور الذي تعلمنا منه الدقة في التعبير والبعد عن المجازفة في إصدار الأحكام .

وإلا فما معنى قوله إنها لم تستسغ حتى الآن عصر الآلة الحديثة وهو يعني حتى صدور كتابه هذا الذي صدر منذ ثلاثة أعوام فقط .

فمن في الدنيا كلها بطولها وعرضها يسمح لنفسه أن يصدر مثل هذا الحكم على دولة يعرفها العالم كله ويعرف مدى التقدم الذي أحرزته في استخدام الآلات الحديثة بكل أنواعها .

إن الطفل الآن في السعودية يقود السيارة ويعرف كل أجهزتها وقطع غيارها ، وشباب السعودية الآن هو الذي يقوم بمعظم الأعمال الفنية في شركة آرامكو بالدمام .

ولست أدري هل حكمه هذا حكم على الحركة نفسها أو على أتباعها المؤمنين بها ، فإن كان يعني الحركة نفسها فهو غير صحيح ، إذ ليس في مبادئها محاربة ما يستحدث من الصناعات أو ما يكتشف من الاختراعات ، بل إنها تؤمن بقبول الحياة المادية للتطور ، ما دام الكون كله بما فيه من قوى مسخراً للانسان كما نطق بذلك القرآن ، ولا ترى مانعاً من الاستفادة من كل تطور يحدث ، ما دام لا يتعارض مع المبادىء الأساسية للاسلام .

وإن كان يعني القائمين بالحركة والمؤمنين بها فهو غير صحيح أيضاً .

فإن استخدام السعوديين للالات الحديثة بجميع أنواعها ، وانتفاعهم بكل ما أنتجته الحضارة ، أمر يعرفه العام والخاص ، إلا أن يكون دكتورنا الذي ما زال يظن أن السعوديين يعيشون حياة صحراوية يركبون فيها الجمل ويستدفئون بالخشب ويطبخون على الأثافي .

اما قول سعادته إن الدعوة إلى القرآن والسنة قصد بها أولاً وبالذات سير الحياة الإسلامية في ظل تعاليم الإسلام فهذا صحيح .

فإن الإسلام إنما شرع منهجاً للحياة فلا بد من إقامة الحياة كلها على أساسه إذا أريد أن تكون أفضل حياة .

ولكن ما معنى قول سعادته بعد ذلك : « وفي صحبة الحضارة الصناعية التي لا بد منها الآن .. الخ » . فما دخل الدعوة إلى القرآن والسنة بالحضارة الصناعية وبناء حياة الشعب عليها ؟

إن الحضارة الصناعية نوع من الترف في أساليب المعيشة ، ومحاولة لتخفيف مشقاتها ، وهـذا شيء لا دخل له بالدعوة إلى تطبيق القرآن والسنة ، فهو خلط لا معنى له .

صحيح أن الإسلام يبيح لمعتنقيه أن يأخذوا بأساليب الحياة الصناعية الحديثة ، أما دعوى أن هذا لا بد منه في الإسلام فهي

دعوى لم نسمع أحداً من مفكري الإسلام قد ادعاها قبل الدكتور .

وما رأي سعادته لو أن شعباً مسلماً أحسن التطبيق لمبادىء الإسلام ولكنه اقتصر في حياته المعيشية على الوسائل البسيطة وبعض الصناعات البدائية الموجودة عنده ، ولم يستورد شيئاً مما استحدث من الصناعات ، ولا أخذ بأساليب الحياة العصرية ، هل يعد هذا الشعب ــ في نظر دكتورنا ــ خارجاً عن الإسلام ؟

إقامة نظام الحياة كله على أساس الإسلام :

ثم يقول سعادته : « إن سير الحركة الوهابية من الوجهة الفكرية والعملية الآن ، يسند اتجاهاً ليس هو الاتجاه صاحب الأثر الايجابي في نهضة شعب جزيرة العرب ، ولا هو كذلك صاحب أثر إيجابي في ربط طوائف الجماعة الاسلامية بعضها ببعض ، ولا هو ثالثاً مما يدل على أن الاسلام دين لحكم الجماعة وإصلاح الفرد وأنه يستطيع مواجهة الأحداث وألوان الحياة المختلفة »

ولست أدري ما الذي يعنيه الدكتور بالاتجاه الذي يسنده سير الحركة فكراً وعملاً ؟

ونحن لا نعلم لسير الحركة اتجاهاً من الوجهة الفكرية إلا إبراز

التصور الصحيح للعقيدة الاسلامية ، وإحياء المفاهيم التي انحرفت بتأثير عوامل الهدم في الجماعة الاسلامية وما أكثرها ، وأما من الوجهة العملية فلا اتجاه للحركة إلا الحفاظ على التوحيد وصيانته من أوضار الوثنية ، وإقامة نظام الحياة كله على أساس الاسلام في كل المجالات من تشريع واقتصاد واجتماع الخ ..

وأما قوله إن هذا الاتجاه الذي تسنده الحركة ، ليس هو صاحب الأثر الإيجابي في نهضة شعب الجزيرة ، فلعل هذا وجهة نظره هو ، وكلٌّ حر فيما يراه .

وأما الواقع الملموس فيقول : إن سير الحركة واتجاهها لم يعق أبداً نهضة الشعب ، ولا وقف حائلاً دون تقدمه . فمظاهر النهضة واضحة كالشمس يراها كل من له عينان ، ويلمسها كل من زار المملكة وشاهد منجزاتها الضخمة في كل مناحي الحياة .

وكم نتمنى أن يقوم الدكتور بزيارة لتلك البلاد العزيزة العتيدة ، ليلمس بنفسه أثر تلك النهضة المباركة في كل ما تقع عليه عيناه .

وأما قول الدكتور : « ولا هو كذلك صاحب أثر إيجابي في ربط طوائف الجماعة الإسلامية » ، فإن أبلغ رد عليه هو ذلك

الدور العظيم الذي يقوم به عاهل الجزيرة حفظه الله في جمع شتات المسلمين وتوحيد كلمتهم ، وإذكاء مشاعر الأخوة الايمانية بينهم ، وكان من أثر ذلك السعي المشكور والجهد المبرور ، انعقاد مؤتمري الرباط ولاهور ، ثم تلك المؤتمرات المتواصلة لوزراء خارجية العالم الإسلامي ، وما تتمخض عنه من قرارات تعود على المسلمين جميعاً بالإعزاز والتمكين .

ثم إنشاء « رابطة العالم الاسلامي » التي تضم ممثلين لمعظم الأقطار الاسلامية ، والتي تقوم مشكورة بإمداد المنظمات والهيئات الاسلامية بكل ما تحتاجه من كتب علمية ودينية وعقد المؤتمرات الدورية لتلك المنظمات بمكة ، وكان آخرها منعقداً وأنا أكتب هذه السطور . ثم إنشاء الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة التي تضم أبناء أربع وثمانين دولة إسلامية ، ثم اهتمام جلالته بانشاء المراكز الاسلامية وتشييد المساجد في جميع أنحاء العالم ، ومساعدة الجمعيات الدينية والخيرية في البلاد العربية والاسلامية .

ونذكر الدكتور أيضاً بزيارة جلالته الأخيرة لعدد من عواصم الدول الافريقية لتفقد أحوال إخوانه المسلمين فيها ، وكيف نجح جلالته في تحويل عدد كبير من هذه الدول عن التعامل مع

إسرائيل وإلغاء التمثيل الدبلوماسي معها .

وكذلك زيارة جلالته الأخيرة لفرنسا التي كسب فيها لقضية العرب لا تأييد فرنسا وحدها بل تأييد مجموعة دول أوربا الغربية .

هذا قليل من كثير مما قام به ملك الوهابيين ياسعادة الدكتور .

فهل لا زلت بعد ذلك عند رأيك في أن الاتجاه الذي تسنده الحركة ليس هو صاحب الأثر الإيجابي في ربط طوائف الجماعة الإسلامية بعضها ببعض ، أم ماذا يا دكتور ؟

تجربة الحكم الإسلامي في السعودية :

وأما قول سعادته : « ولا هو ثالثاً لما يدل على الإسلام دين لحكم الجماعة وإصلاح الفرد الخ » . فالضمير هنا طبعاً للاتجاه الذي تسنده الحركة ، ويبدو لي أنه يريد به الحكم الملكي السعودي ، وأنه حكم لا يدل على أن الإسلام صالح لحكم الجماعة ولا لإصلاح الفرد ، ولا أنه دين يستطيع مواجهة الأحداث !

وسعادته يقصد ــ بغير لف ولا دوران ــ أن تجربة الحكم الإسلامي في السعودية تجربة فاشلة ، ولا أظن أحداً من أعداء السعودية أنفسهم يجرؤ أن يدعي مثل هذه الدعوى ، لأنه يخشى أن يصبح ضحكة للناس ، أو أن يرمى بالعته والجنون .

فإن الحكم في السعودية بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء أصبح بحمد الله، مضرب المثل في العدل والأمن والاستقرار، بسبب إقامته للحدود الإسلامية، وكل ميزات الحكم الصالح لا تجدها متوفرة في مكان ما من أرض الله إلا في السعودية. وأما إصلاح الفرد، فإن العناية بتنشئة الأفراد تنشئة صالحة، فكرياً وخلقياً ووجدانياً، على أتم ما يكون.

وأما مواجهة الأحداث وألوان الحياة المختلفة، فإن السعودية تكاد تكون الدولة الإسلامية الوحيدة التي استطاعت أن تنتفع بما يستجد من ألوان الحضارة، دون أن تذوب فيها كما فعلت دول إسلامية كثيرة.

بل إنها وقفت منها موقف المسلم الذي يعرف كيف يستفيد مما عند الآخرين، دون أن يضر ذلك بدينه أو بأخلاقه أو بعاداته.

ثم يقول سعادته: «إن الفجوة بين الفكرة الأساسية للحركة الوهابية وبين التطبيق العملي في حياة المؤمنين بها فجوة واضحة. إن مجال الفكر الوهابي والعقيدة الوهابية مجال القراءة والترديد إنه مجال الاصطناع والاحتراف بها في غير بناء وفي غير ملاءمة».

ولا نظن أن مثل هذا الكلام قد صدر من الدكتور وهو في

حالة اتزان أبداً . بل لا بد أن يكون قد كتبه تحت حالة انفعالية شديدة . فلقد بدأ فيه كثور هائج لا يقذف خصومه بالكلمات فحسب بل بالطوب والحجارة .

إنه كلام كان يجب أن يحاكم عليه الدكتور وأن يتحمل تبعته وعقباه.

إنه يرمي الوهابيين أولاً بالنفاق وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ويتخذون من الدعوة شعاراً لا أثر له في التطبيق العملي والحياة الواقعية.

ثم يرميهم ثانياً بالجهل وأنهم يقرءون ما لا يفهمون ، ويرددون عبارات لا يعرفون مدلولاتها .

ثم يرميهم ثالثاً بالتسول واتخاذ الدعوة مجالاً للاحتراف والتأكل بها ، أليس كذلك يا دكتور ؟

منهج فكر وخطة حياة :

ولكن الحقيقة التي حجبها الغضب والانفعال عنك ، على عكس ما تقول تماماً في اتهاماتك الثلاثة ، فلا توجد فجوة أصلاً بين المجال النظري للحركة الوهابية وبين التطبيق العملي للمؤمنين بها ، بل لا نعرف حركة إسلامية كانت أمينة على مبادئها وملتزمة بها في مجال التطبيق مثل الحركة الوهابية ، ولعل هذا هو الذي ضمن لها البقاء والرسوخ ، فقد أصبحت منهج فكر وخطة حياة وجزءاً من كيان

المؤمنين بها ، ولم يكن مجال الفكر الوهابي والعقيدة الوهابية هو مجال القراءة والترديد كما يدعي الدكتور ، بل هو مجال الفهم السليم والإيمان الواعي والدعوة الصادقة .

ولقد ظهر في حقل الدعوة علماء لهم وزنهم في رجاحة الفكر وفصاحة القول وجودة التأليف وكذلك لم تكن الوهابية في يوم من الأيام صنعة ولا احترافاً ، بل كانت دعوة رجل تجرد من كل هوى وعصبية ، ثم قام بها مخلصاً لربه لإنقاذ أمته لما تردت فيه من ردغات الضلال .

ثم حملها من بعده الأمناء عليها من أبنائه وأحفاده وتلامذته وأنصاره،وكان السيف السعودي من ورائهم يشد أزرهم ويحوط حركتهم.

وكان هذا من لطيف صنع الله لهذه الحركة ، أن جمع لها السيف والقلم واللسان ، فآتت أكلها شهياً ، ومضت إلى غاياتها قُدُماً ، لا يعوقها استبداد حاكم ولا عسف سلطان .

والعجب من الدكتور الذي يقسو على الوهابية في نقده إلى حد الاقذاع ، لم نره كتب ولا مرة واحدة ضد خصومها من القبوريين والصوفية ونحوهم ، بل يلوم الوهابية على أنها لم تسع للتقارب معهم . فأي منطق هذا يا دكتور ؟

ثم يقول سعادته : « أما حياة الجماعة الوهابية فإنها على نحو حياة أية جماعة إسلامية أخرى تسير في عزلة عن الفكر والآراء الإسلامية ، وتخضع في تحركها وفي سيرها إلى عوامل مرددة بين اتجاهات شرقية وأخرى غربية وبين عادات وتقاليد لا يحددها مصدر واحد » .

والدكتور هنا يرمي كل الجماعات الإسلامية ، بما فيها الحركة الوهابية ، بأنها تسير في عزلة عن الفكر والآراء الإسلامية .

ولست أدري ما الذي يعنيه بالفكر والآراء التي تعيش الجماعات الإسلامية في عزلة عنها ؟ هل يعني بها مثلاً آراء المتكلمين والفلاسفة والصوفية ، تلك التي شوهت جمال العقيدة الإسلامية وأخرجتها عن نقائها وبساطتها ، وجنت عليها بتلك التعقيدات الفكرية والشطحات الصوفية .

وإذاً فما حاجة الجماعات الإسلامية إلى تلك الفكر والآراء العفنة لكي تتصل بها وتعيش عليها ؟

وإن عنى بها الأفكار السليمة والآراء المستقيمة التي تمخضت عنها عقول لم تنحرف ولم تفسد بالهوى والتقليد الأعمى ، مثل أفكار الشيخين الجليلين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله ، فلا شك أن الحركة الوهابية لا تسير في عزلة عن هذه الفكر والآراء ، بل هي على صلة تامة بها .

هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه :

وأما قوله إن الحركة تخضع في تحركها إلى عوامل مرددة بين الشرق والغرب فاتهام باطل لا اساس له ، فان هذه الحركة لم تخضع طول عمرها ، ولن تخضع إن شاء الله ، فيما بقي من عمرها ، لأيـة عوامل بعيدة عن الاسلام شرقية كانت او غربية .

وكذلك لا تعرف من العادات والتقاليد إلا ما يقره الاسلام .

وبالجملة فلا مصدر لهذه الحركة في جميع اتجاهاتها إلا شيء واحد لا ترديد فيه ، هو الوحي النـازل من السماء قرآناً كان او سنة ، فهي لا تنحرف عنه لا شرقاً ولا غرباً ، متمثلة دائماً قول الله تعالى من سورة الأنعام : « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

ثم يقول سعادته : « وكان المؤمل في معانقة السلطة الرسمية لها ان تتميز عن اي حركة إسلامية اخرى بالتطبيق العملي ، وفقاً للفكرة الأصلية السلبية والايجابية معاً . وان تكون حياة الجماعة التي آمنت بها عنواناً تتجلى فيه فكرة الداعي كما آمن بها وتركها من بعده » .

وهذا الذي يؤمله الدكتور هو الواقع فعلا ، فان معانقة السلطة الرسمية للحركة قد حماها من العواصف الرديئة التي قد تتعرض لهـا

الجماعات الاسلامية الأخرى .

فاستطاعت الحركة في ظل هذه الحماية ان تسير بخطوات ثابتة نحو هدفها ، وان يكون تطبيقها العملي متناسقاً مع الفكرة الأساسية للحركة ، وان تكون حياة الجماعة التي آمنت بها عنواناً صادقاً للمبادىء التي أعلنها مؤسس الحركة ـــ رحمه الله ـــ وآمن بها ، ولم يقع فيها خلفٌ أبداً ، لا بين المجال النظري والتطبيق العملي ، ولا بين حياة الجماعة ومبادىء الداعي ، كما يقع في بعض الجماعات الأخرى بسبب الضغط الواقع عليها من قبل السلطات .

أكبر عملية بناء علمي في هذا العصر :

ثم يقول سعادته : « إن التآخي بين تعاليم المذهب الوهابي والسلطة الزمنيه في المملكة العربية السعودية طبقاً للعهد الذي وقع بين الشيخ والأمير سنة ١١٥٧ هـ كان يحتم إبعاد الثنائية في التعليم في هذه المملكة وتوزيعه بين ديني ومدني » .

والواقع الذي خفي على الدكتور أنه لم يكن هناك ثنائية في التعليم ، بل تعليم نظامى ، منذ وقع العهد بين الشيخ والأمير ـــ رحمهما الله ـــ إلى أن أنشئت أول مديرية للتعليم سنة ١٣٤٤ هـ ، أي بعد نحو سبعين ومائة سنة من توقيع العهد المذكور .

وكان التعليم كله في تلك الحقبة دينياً يتلقاه الطلبة على الشيوخ في المساجد على غرار ما كان موجوداً في مصر بالنسبة للأزهر وبعض المساجد الكبرى ، ثم أنشأت مديرية المعارف بعض المعاهد النظامية في مكة والرياض وبعض المدن الكبرى في نجد والقصيم مثل عنيزة وبريدة والمجمعة وشقرة .

وكانت تستجلب لها الأساتذة من الأزهر أيام أن كان سعادة الدكتور مديراً للبحوث ، وظلت الحال على ذلك إلى أن أنشئت وزارة المعارف سنة ١٣٧٣ هـ .

ولم يكن هناك وقتئذ سوى مدرستين ثانويتين إحداهما بجدة والأخرى بمكة ، فاضطرت الوزارة لكي تلحق بركب الدول المتحضرة أن تجد في إنشاء المدارس وإدخال العلوم الحديثة على مناهجها إلى جانب المواد الشرعية والعربية .

ومع ذلك احتفظت بالمعاهد التي كانت قد أنشأتها مديرية التعليم لكي تمد الكليات بحاجتها من الطلبة .

وكان سير الوزارة في هذه السبيل ركضاً شديداً بل قفزا ، حتى استطاعت في مدى عشرين سنة فقط أن تنشيء ألفي مدرسة في مراحل التعليم المختلفة ، أي بواقع مائة مدرسة كل سنة .

وبذلك لحقت المملكة بكل من سبقها بل تفوقت على الكثير ممن سبقوها ، وأصبح فيها الآن نهضة علمية تعتبر معجزة إذا نظر إلى العوائق الكثيرة التي كانت قائمة والتي من أهمها اتساع رقعة المملكة وتباعد مدنها وقراها بمسافات شاسعة .

ومع ذلك تحققت بفضل الله ثم بهمم العاملين في حقل التعليم وعلى رأسهم الوزير العالم الأديب والدءوب الطموح معالي الشيخ حسن ابن عبد الله آل الشيخ أمده الله بعونه ، أقول تحققت أكبر عملية بناء علمي في هذا العصر ، وعمت المدارس كل قرى المملكة من أقصاها إلى أقصاها ، وأصبحت فرصة التعليم متاحة لكل المواطنين .

والآن لا يوجد إلا تعليم ابتدائي واحد تدرس فيه كل المواد الدينية من عقيدة وفقه وغيرهما ، ولا يوجد كذلك إلا مرحلة متوسطة واحدة .

وأما المرحلة الثانوية فرغم انقسامها إلى معاهد ومدارس فهي متقاربة المناهج ، لا سيما بعدما أدخلت العلوم الحديثة على المعاهد .

وعلى كل حال فإن هذه الثنائية التي يزعمها الدكتور لو وجدت فرضاً لم تكن على حساب الدين أبداً ، ولم يكن الغرض منها أن يكون للسلطة الرسمية فريق من الطلبة وللوهابية فريق ، كما كان يحصل

في البلاد التي منيت بالاستعمار .

ولكن كان لذلك ظروف وأسباب اقتضت هذا الوضع مع ولاء الكل للحركة الوهابية وللبيت السعودي ، فلا فرقة ولا ازدواج .

ثم يقول سعادته : « وهناك انفصالية أخرى في دائرة التعليم النظري نفسه بين هذه التعاليم والثقافة الإنسانية » .

وهذه الانفصالية أيضاً من بنات خيال الدكتور .

فإن الثقافة الإنسانية بكل فروعها من تربية وعلم نفس وجغرافيا وتاريخ وغيرها ، تدرس الآن بالمدارس والمعاهد والكليات السعودية .

ويوجد بمكة المكرمة كلية خاصة للتربية تابعة لجامعة الملك عبد العزيز .

بل إنه ليوجد الآن في السعودية من الأساتذة المتخصصين في كل فروع الثقافة الإنسانية ما لا يكاد يوجد في أي بلد إسلامي آخر .

والمملكة ـــ حرسها الله ووقاها شر الحاقدين ـــ لا تبخل في هذه السبيل بشيء من المال ، بل تنفق بسخاء في استقدام أقوى الأساتذة وأكفأ المدرسين .

كما أنه يوجد عشرات بل مئات من أبناء المملكة في جامعات أوربا وأمريكا يحضرون للدكتوراة في كل فروع المعرفة ، فضلاً على

من تخرج منهم واشتغل بالتدريس أو الإدارة في جامعاتهـــا وهم يعدون بالعشرات أيضاً .

ولن يمر وقت طويل حتى تسد المملكة حاجتها من ذوي الرتب الجامعية العالية بل وتصدر لغيرها من شقيقاتها العربية والإسلامية .

الوهابية آخذة بكل أسباب الحياة :

ثم يقول سعادته : « وإذاً تعاليم المذهب الوهابي كتعاليم الدين الإسلامي في أي بلد إسلامي آخر في عزلة عن الحياة وعزلة عن التعليم العام .

وليس هناك أثر علمي لميزة التآخي بين الدعوة والسلطة لا في مجال التطبيق ولا في مجال التعليم العام » .

ويظهر أن الدكتور أراد أن يلخص رأيه في الوهابية بهذا النص الذي ليس مسك ختام ، والذي لا يعقل أن يكون صدر أبداً عن نفس متجردة من الهوى والغرض .

ونسأل الدكتور البليغ عن هذا التشبيه في قوله : « إن المذهب الوهابي كتعاليم الدين الإسلامي » فهل للمذهب الوهابي تعاليم غير تعاليم الدين الإسلامي حتى يصح ذلك التشبيه ؟

أم يريد أن يقول : إن حظ المذهب الوهابي من تعاليم الدين كحظ اي بلد إسلامي آخر ، ثم يرمي الجميع بالعزلة عن الحياة والعزلة عن التعليم العام .

ونحن لا نسلم له أولاً أن حظ الوهابية من الدين كحظ غيرها من البلاد الإسلامية ، فشتان بين حركة قامت لتصفية الدين من الشوائب والأكدار الدخيلة ، وبين مذاهب منحرفة لم تعرف الدين إلا من خلال آراء مستحدثة وفلسفات دخيلة .

ولا نسلم له ثانياً بأن الوهابية في عزلة عن الحياة بل هي آخذة بكل أسباب الحياة ، كما أنها مصدر حياة الملايين المؤمنين بها ولا يرون الحياة الحقة إلا في ظلها .

وأما إن أراد بالحياة جياة الغرائز الدنيا ، والمتع الرخيصة ، والتمدن الكاذب الذي تردت فيه كثير من بلاد الإسلام ، فإن الوهابية تربأ بنفسها وبأهلها عن مثل تلك الحياة .

ولا نسلم له ثالثاً أن الوهابية في عزلة عن التعليم العام ، بل هي تأخذ بكل علم نافع وتلتقط الحكمة أنى وجدتها .

الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل:

وبعد فهذا مقال الدكتور محمد البهي عن الوهابية .

ويؤسفني أن أقول إنه لم يصب ولم يوفق في شيء مما قاله ، وإنما كان يبدو مدفوعاً إلى كتابته ، وكان التحامل هو الطابع العام للمقال من أوله إلى آخره .

ولقد أساء الدكتور بهذا المقال إلى نفسه أولاً حيث ورطها في أخطاء ظاهرة الشناعة ، ثم أساء إلى الحقيقة في نفسها حيث ظلمها وتجنى عليها .

فهل للدكتور — في ضوء تعقيبنا على مقاله — أن يراجع نفسه ويرجع عما قاله عملا بالمثل القائل إن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل . هذا ما نرجوه .

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سبيل الحق والإنصاف ، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، إنه ولي التوفيق .

د . محمد خليل هراس

رئيس قسم العقيدة بالدراسات العليا
بكلية الشريعة بمكة المكرمة